

## أي قيغ نناشد بالمجتمعات العربية أ . سارة دبوسي جامعة قفصة - تونس

ملخص:

ترتكز هذه الدراسة على رؤية نقدية استقرائية لمسألة القيم بالفضاء العمومي العربي، باعتبار أن الإهتمام بها أضحي من أولويات القضايا الشاغلة للفكر العربي اليوم، خاصة أمام ما باتت عليه هذه المجتمعات اليوم في زمن العولمة والتقدم العلمي والتقني المهول ، زد على ذلك ثقافة السوق المعمة من أسلوب عيش جعلتها تتخبط في أزمة خانقة جعلت من وجودها في مأزق. لذلك راهنا على ضرورة نزول الفلسفة إلى الميدان لتجاريا هذا النسق السريع للقيم نقديا وتشق طريقا يتماشي وهذه الهيمنة التي جعلت من القيم تعاني الهجنة والعهر .

الكلمات المفتاحية: القيم، الفضاء العمومي العربي، الهوية، الاغتراب

Résumé : Cette étude est basée sur une vision critique et extrapolante de la question des valeurs dans l'espace public arabe, considérant que l'intérêt pour elles est devenu une priorité des questions qui concernent la pensée arabe aujourd'hui, en particulier face à ce que ces sociétés sont devenues aujourd'hui à l'époque de la mondialisation et du grand progrès scientifique et technique. La culture de style de vie généralisée du marché l'a fait patauger dans une crise qui a rendu son existence dans un lien. Nous avons donc insisté sur la nécessité pour la philosophie de descendre sur le terrain pour échanger ce modèle rapide de valeurs en espèces et de construire une manière qui est en accord avec cette domination qui a fait les valeurs souffrent du ciel et de la dot.

Summary: This study is based on a critical and extrapolating view of the question of values in the Arab public space, considering that interest in them has become a priority of the issues that concern Arab thought today, especially in the face of what these societies have become today in the era of globalization and great scientific and technical progress. The generalized lifestyle culture of the market has made it flounder in a crisis that has made its existence in a bond. So we insisted on the need for philosophy to get down on the ground to exchange this rapid pattern of cash values and build a way that is in accord with this domination that made values suffer from heaven and dowry.

تمهيد:

كثر الحديث في العقود الأخيرة من القرن العشرين وبداية الحادي والعشرين عن الفضاء العمومي العربي شأن نظيره الغربي ويعود ذلك بالأساس إلى جملة التحولات السياسية والاجتماعية التي تعرفها البلدان العربية وحاجتها الماسة إلى هذا الفضاء الذي يساهم بشكل كبير في ترسيخ قيم الديمقراطية والحرية والتعددية والاعتراف خاصة وأن الواقع العربي الراهن في حاجة ماسة إلى التواصل والتفاعل الإيجابي بين الأنا والآخر في ظل التغيرات والمستجدات العالمية التي فرضها التقدم العلمي والتقني والذي جعل من العالم يتجه نحو الصمت والوحدة بدل التشارك الجماعي في الفعل.

ورغم أن المصطلح يحمل في ثناياه تجربة تاريخية أوروبية في مختلف أبعاده الفلسفية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، إلا أن التحولات الكونية قد جعلت من طرحه في الفضاء العربي لازمة وجودية ضرورية تطرح

من أجل استيعاب التطلعات العربية الحاملة بأفق سياسي واجتماعي يجاري في تطلعاته ما بلغته الأمم الغربية منذ غابر الأزمان بأشواط متعددة.

وعلى الرغم من التفاوت الحاصل في شأن التصورات الحاصلة حول الفضاء العمومي الغربي ونظيره العربي، إلا أن ذلك لم يكن بالعائق بالقدر الذي جعل من التفكير في شأنه بالأمر الهام خاصة أمام ما بات عليه العالم من تغيرات اجتماعية وسياسية وثقافية جعلت من الاهتمام بهذا الأفق من أولويات الفكر النقدي اليوم ليكون مصطلح الفضاء العمومي العربي من بين المصطلحات التي تناولتها وطرحتها عدة أقلام عربية على محك التفكير والنقد. فما المقصود إذن بهذا المفهوم؟ وهل في طرحه بالصيغة العربية ما يسترعي ضرورة حضور التصور الهابرماسي له أم أنه سيكون مماثلاً له دون أن يقلده؟ وفيما تتجلى أهم مواصفاته؟ وهل أن الحديث عن الفضاء العمومي العربي ما يسترعي ضرورة المقارنة البناءة بينه وبين نظيره الغربي أم أن تناوله يقف على حدود ما بلغته الدول العربية من تدهور قيمي ينبأ بتدهور اجتماعي قادم؟ وأي دور للفلسفة العربية ضمن هذا الطرح؟

### 1 الفضاء العمومي العربي من التعريف إلى المدلول

لقد تركز الجدل العربي ضمن دراسته للفضاء العمومي العربي حول علاقة الأنا بالآخر من أجل البحث عن التوافق والإنسجام حول القضايا الاجتماعية العربية المتعددة، وبذلك "يحمل الفضاء العمومي دلالة جدلية مركبة، في معناه الإجمالي يصف اصطلاح الفضاء العمومي، ذلك "الفضاء الاجتماعي الذي يعرف تبادلات عقلانية ونقدية بين الذوات (الفردية والجماعية) التي تسعى إلى بلوغ حالة التوافق حول القضايا التي تتصل بالممارسة الديمقراطية"<sup>1</sup>

يطرح التفكير في الفضاء العمومي العربي العديد من الإشكالات والمفارقات المتصلة بالإجماع الإنساني من منظوره العام، خاصة وأن الإهتمام به قد أضحى من بين الأولويات التي باتت تشغل الفكر العربي اليوم أكثر من أي وقت مضى. ذلك الفضاء الذي يعد من أكثر الموضوعات المعقدة التي لم تحضى بالاهتمام الفعلي من الدراسة في الفكر العربي رغم ما تعانيه من إشكالات عدة وربما يعود هذا للإهتمام إلى عدم وجود سيمات ومواصفات الفضاء العمومي البرجوازي الذي تناوله هابرماس وكما نعلم فقد كان نتاج لتحليله العميق لفكرة الليبرالية بالمجال العمومي البرجوازي الأوروبي. أو ربما لإختلاف ضروب التفكير العربي عن الغربي. فهل من الممكن أن يكون الفضاء العمومي العربي موضوعاً للدراسة والتحليل شأن نظيره الغربي؟ ولماذا القيم بين الموجود والمنشود؟

لاشك أن طرح مثل هكذا مشكل لم يكن بالأمر اليسير خاصة أمام ما باتت عليه هذه المجتمعات اليوم في زمن العولمة والتقدم العلي والتقني المهول، زد على ذلك ثقافة السوق المعممة من أسلوب عيش جعلتها تتخبط في أزمة خانقة جعلت من وجودها في مأزق. بعد أن ألفت التكنولوجيا الرقمية الجديدة بضلالها على فضاء العيش المشترك وحولت القيم الإنسانية النبيلة عن وجهتها المعتادة وغاب بالتالي العقل النقدي وحل أفول مهيب للقيم وهذا ما باتت تشهده البلاد العربية والإسلامية بخاصة.

عديدة هي الكتابات التي أفرزتها أقلام عربية من أجل الحديث عن فضاء عمومي في المجال العربي الإسلامي شبيه بنظيره في الغرب، ذلك الذي تحدث عنه هابرماس الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للعلاقة بين الفضاء العمومي والديمقراطية ضمن أطروحته المرجعية عن التحولات البنيوية للفضاء العمومي البرجوازي. وأمام ما بات عليه الفضاء العمومي العربي من إشكالات وإحراجات عدة، صار التفكير في استرجاع هبة القيم من جديد أمر ضروري وعاجل وذلك من أجل التصدي لهشاشة فضاءاتنا العمومية التي تسودها أصوات تتشر ثقافة الجشع والهجنة، وتحارب الحريات وتهدد قيم المواطنة والحياة المدنية الحديثة التي اتفقت عليها الإنسانية منذ عصر التنوير، من أجل ارساء عالم تسود فيه قيم الكرامة والعدالة والحرية لجميع البشر. فأية منزلة للقيم الفلسفية اليوم في الفضاء العمومي العربي؟ وبأي معنى يمكن للفلسفة أن تكون عمومية للتصدي للسيطرة الرقمية الجديدة والمفرعة؟

## 2- الانسياب العفوي للقيم:

إن ما يسترعي انتباهنا ضمن تناولنا لهذا الطرح هو مسألة القيم التي باتت في مآزق أمام تنامي ما بات يعرف اليوم بجذلية الداخل والخارج التي دفعت بها تيارات العولمة بالفضاء العمومي العربي، حيث ظهرت العديد من الإشكالات على السطح كالهوية والسيادة والمواطنة. ولكن ماذا نعني بالقيم وكيف تتشكل؟ تشكل القيم المرجع الأصلي في بناء شخصية الفرد بناءا سليما متوازنا من حيث اتصالها بالجانب النفسي والجسدي والفكري معا، فهي القاعدة التي يتم انطلاقا منها البناء الشخصي لكل ذات، وهي أيضا المنبع الذي تستقي منه المبادئ والمثل الفاضلة التي يتم بناءا عليها تربية النشأ، إلا أن ما بتنا نشهده اليوم من انحلال عفوي لواقع القيم بالفضاء العربي هو ما جعلها موضع اهتمام العديد من المفكرين. فهل أن هذا الانحلال مرده إلى هيمنة بعض التوجهات الإيديولوجية التي تتستر خلفها آليات سلطوية؟

إن القيم هي القوانين التي تؤطر الحياة الإنسانية من أجل بناء مجتمع يطيب فيه العيش عبر جملة من المعايير والضوابط التي بها يتجسد ضمير أو وجدان المجتمع والأمة، وحدها القيم بإمكانها توجيه سلوك أفراد المجتمع الواحد وهي أيضا بمستطاعها أن تعبر عن خصوصيته وهويته، لذلك فلا يمكن إلا أن تكون نتاجاً ذاتياً غير مفروض عبر الهيمنة أو القوة التي تشرع لها بعض الإيديولوجيات والسياسات التي تروج لها بعض الدول المحتكرة للقوة في العالم.

وكما هو معلوم فلكل أمة هويتها الثقافية بما تمثله من لغة ودين وعادات وتقاليد وأنماط سلوك تشكل روحها وتميزها عن غيرها من الأمم الأخرى لذلك فغالبا ما يكون الصراع بشأنها شرسا من أجل المحافظة عليها من الاضمحلال والذوبان في الهويات الأخرى المغايرة لها خاصة أمام بات يشهده الواقع الإنساني اليوم من انحلال للقيم بالمجتمعات العربية الإسلامية.

فما بات عليه الفضاء العمومي العربي من انفتاح كبير لغزو الثقافات الغربية قد أدى إلى تهميش وضعف اللغة العربية، هذا فضلا عن التقليد الأعمى للجيل الصاعد بالدول العربية للعادات والثقافات الغربية في ظل غياب استراتيجية عربية ثقافية شاملة، وهذا ما أفضى إلى زعزعة الهوية العربية فضلا عن إضعاف القيم والمبادئ والأخلاق في عموميتها.

فما من شك أن الانسياب العفوي للقيم بالفضاء العمومي العربي قد جعل من أفق العيش بهذه المجتمعات اليوم في حالة صراع مستمر، هذا فضلا عن الفراغ الأخلاقي الواسع الذي زاد من تدهور الوضع الإنساني بالمجتمعات العربية. وهذا ما استرعى ضرورة الاهتمام الفلسفي بهذا الأفق الذي صار على مشارف الهاوية خاصة وأن إهمال الإنسان العربي المعاصر للقيم والمبادئ قد زادت من حدة الأزمة الإنسانية العربية الراهنة. إن الفضاء العمومي العربي اليوم قد بات يعيش تحت وطأة ما بات يعرف بأزمة مدمرة للقيم قد أخذت معها كل ما هو أصيل وحميمي لتزج بالإنسان المعاصر في قيم دخيلة ومستعصية حتى على الفهم لتتشابك بالتالي أصول وفصول هذه القيم ويصبح الإنسان العربي المعاصر حائرا أمام ذاته التي صارت في غربة عنه وعن الآخر أيضا الذي لم يعد يفقه أسلوب عيشه الذي صار شبيها بالغريب.

فهذا الإنفصام القيمي الذي بات عليه الإنسان العربي اليوم قد جعله في حيرة كبرى أمام خياراته الذاتية التي ما تنفك تتشابك بين ما يريد وما يجب عليه أن لا يريد، قد أدخله في دوامة المعقول واللامعقول حتى أنه لم يعد يفقه أمره الخاص إلا قليلا وكما قال المفكر علي حرب "نحن عرب أو مسلمون في ما يتصل بالمقدسات والمحرمات، ولكننا غربيون فيما يتعلق باستيراد الأدوات والسلع والصور والمتع التي توفرها... أي في كل ما يتصل بمادة الحياة وأسباب الحضارة"<sup>2</sup>

ومعلوم أن القيم تمثل ضربا من قوانين الحياة التي بها نسلك الدرب من جهة، ومن جهة أخرى فهي جملة المعايير والضوابط على أساسها يتم تشكيل الضمير الجمعي لمجتمع ما والذي نسوق ضمنه سلوك أفراده وهويتهم الخاصة ما يعني أن القيم هي جملة الضوابط والمعايير الذاتية للمجموعة بعيدا عن كل إكراه وغزو قيمي. إلا أن ما صرنا نشهده على أرض الواقع العربي خلافا لذلك، فهذا الواقع المرير الذي صارت عليه القيم اليوم هو ما جعل من الإنسان العاصر في حيرة واسعة على مجالات عدة، ليكون بذلك هو المحفز الرئيسي له من أجل الوقوف وقفة نقدية تأملية مع ذاته. فهل من الجائز القبول بهذا الانحلال العفوي للقيم؟ إن هذا الانحلال العفوي هو ما جعل من الفضاء العمومي يعيش فعلا أزمة قيم مدمرة على مستويات عدة، فالأفق الذي تغيب فيه جملة الضوابط الأخلاقية الموجهة للسلوك يصير العيش فيه صعبا ولكن من المسؤول الحقيقي عن هذا الانحلال القيمي العفوي؟ وهل أن هذا التحول القيمي مرده إلى النهضة العربية الإسلامية أم إلى الغزوات الثقافية الغربية؟ ومن المتحكم في صنع القيم؟ وكيف تتحول الأنساق القيمية وتتغير بنسق سريع؟

عديدة هي الأسئلة المحيرة والمربكة للفكر باعتبار أننا صرنا نعيش في زمن اضمحلت فيه القيم الأصيلة والمعبرة عن خصوصيتنا لنجد أنفسنا نعيش في قيم مغايرة تماما لما كنا عليه. فالعولمة مثلا قد أضرت بالواقع القيمي العربي من خلال نشرها للكثير من المظاهر المادية التي لا تمت للهوية الثقافية العربية بصلة. هذا فضلا عن نشرها للثقافة الإستهلاكية التي جعلت من العيون لا تبصر إلا ما يعرض للاستهلاك وأربكت العقول. كما أنها أفقرت الثقافة العربية من مضمونها الأصلي من خلال جعلها تقتصر على الكسب السريع والتسلية الوقتية الزائفة.

كما أن العولمة والتكنولوجيات الحديثة ساهمت أيضا في إضعاف دور الأسرة العربية من كونها تمثل المرجعية الأخلاقية والقيمية للناشئة، إلى جعلها مجرد فضاء عادي من خلال نشرها لمذات الحس وإثارة الغرائز عبر مواقع الأنترنت لتتصدر هذه المواقع المراكز الأساسية في تفكير الناشئة بدل الأسرة. "الأمر نفسه ينطبق على الإمبريالية الكلاسيكية المؤسسة على مبدأ أن التسلط الذي يبني دائما هذا النوع من مخادعة التقدم: الاستعمال الأحادي لسلطة التكنولوجيا، حيث يمكن لخصوصيات الشعوب أو خصوصيات الثقافة التي باسمها قام النضال نحو الاستقلال أن تصبح في بعض الحالات غطاء للماضي وللمغالطة"<sup>3</sup>.

لقد جعلت العولمة الناس يعيشون بعلم لا وطن ولا دولة له مما يعني أنها تستدفع العقل البشري في تفكيره وفي إدراكه للوقائع والأحداث عبر جعله مفرغا من الهوية الجماعية التي نشأ عليها وبالتالي إفراغه من كل محتوى ودفعه نحو التشتت والتفتت الذي رسمته له ليكون بذلك إنسانا فاقدا لمضمونه القيمي وغير فاقه للقيم الدخيلة عليه ذلك هو الأفق الذي رسمته العولمة له لتجعل منه إنسانا هجيناً قيمياً. "أصبحت العولمة توفر للجميع تطور الاتصالات الجماعية، في سرعة التبادلات المادية والايديولوجية، ولم يعد توسع النموذجية والآليات محل معارضة فلسفية ليدخل بذلك مجال الحياة اليومية. حيث خلقت الانحرافات التي تحصل بمرأى من أعيننا: فقدان المعنى، التطابقات المفسدة، الهيمنة الجديدة، اللامساواة الجديدة، طرق الصوفية الجديدة."<sup>4</sup> ورغم أن مجال القيم هو مجال تعددي نسبي، وبمستطاع الفرد أن ينسج ضمنه قيمه كما يشاء وفقا لأهدافه وغاياته الذاتية، إلا أن ما اتجه نحوه واقعنا العربي صار شبيها بحالة الطبيعة التي تكلم عنها فلاسفة العقد الاجتماعي وأصبح بذلك الإنسان العربي شبيهه بذئب هوبز منطقه الأساسي الغاية تبرر الوسيلة.

إن سلك الإنسان العربي طريق القيم الفورية هو ما جعل من قيمه الأصلية تنهار وتتحدروا نحو المجهول وذلك لأنه اتبع أهوائه ومصالحه وتناسى هويته التي نشأ عليها وهذا ما جعله يتبع قيم الهجنة والانحدار ليصير بذلك فارغ من كل محتوى قيمي وأخلاقي لا لشيء إلا لأنه اتبع ربحه الشخصي وربما ذلك هو السبب الأساسي الذي جعل من القيم العربية اليوم تتغير بنسق متسارع.

فهذا التسارع والزوال الرهيب للقيم العربية، قد يؤدي إلى تغير كبير في نسيج القيم العربية ويدفع بها نحو وضعية قيمية غير مألوفة لذلك فإنه سيكون من المستحيل استشراف مستقبل أفضل ما لم نحترم قيمنا الجماعية كما يقول المفكر الفرنسي جاك بيريك: "أعتقد أن من المستحيل أن يصل شعبا من الشعوب إلى مستقبل سليم دون احترام القيم وحياتها".

لذلك فالأزمات التي يعانيتها المجتمع العربي اليوم هي وليدة الأزمة القيمية ولنا في ذلك العديد من الأمثلة ، كأن نتكلم عن أزمة الضعف الدراسي والذي يعود بالأساس إلى عدم الاهتمام بالمرادود الدراسي والإنصياح العشوائي وراء وسائل الاتصال بدل التركيز على الدراسة وهذا من شأنه أن ينمي ثقافة الجهل والتأخر العلمي الصادر عن الاستهتار واللامبالاة بالعلم بدل الاهتمام به وهذا ما يجعلنا نتأخر أشواطا كبيرة عن مواكبة الصيرورات العلمية العالمية.

زد على ذلك توسع ثقافة الأكل واللباس التي هيمنة بشكل واسع بالبلاد العربية وهو ما ساهم في تراجع القيم الأخلاقية خاصة في ما يتعلق باللباس كأن نتكلم مثلا عن انتشار ظاهرة الدجينز الممزق مثلا والأكلة

والسريعة مثلا، لذلك فإن الكثير من مشكلات العصر تحمل في طياتها أزمة أخلاقية وقيمة ضاربة في العمق جعلت من المجتمع العربي يعاني العديد من الخسائر الأخلاقية سواء بوعي أو بدونه في معظم الأحيان.

وليست تلك المشكلات سوى بداية أعراض للمرض الرئيسي المتمثل في الإنحلال العفوي للقيم بالعالم العربي، ذلك العالم الذي أضاع بوصلته في الزحام حينما أراد مسايرة التغيرات العالمية الراهنة لأنه وبكل بساطة انبهر بها وتناسى قيمه التي تكاد تغنيه عن قيم العالم بأسره لذلك بات يعاني العديد من الخسائر الأخلاقية والقيمية الفادحة دون أن يعي بذلك في غالب الأوقات.

فهذه القيم الدخيلة عليه ليست إلا ضربا من تمزيق وعيه الجماعي وتضليلا لعقله الجماعي أيضا باعتبارها تساهم في نزع قيمه وتغرس فيه قيما جديدة والحال أن قيمه ثابتة ولا تتزعزع" إن الطبيعة الإنسانية، عند مضللي العقول، ثابتة لا تتغير وكذلك الحال بالنسبة للعالم (...). شيئا يتعين على الناس، بوصفهم مجرد متفرجين، أن يتكيفوا معه"<sup>5</sup>.

فالقيم المعولمة قد أضرت كثيرا بالفضاء العمومي العربي من خلال قضائها على التواصل اللغوي سواء بين أفراد الأسرة الواحدة أو بين أفراد المجموعة الواحدة من خلال انشغال كل بهاتفه النقال وما اشتمل عليه من تواصل اجتماعي وغيره من الألعاب الذكية، هذا فضلا عن قطعها لمبدأ الاعتراف البناء والذي قوامه الحب والاحترام والتقدير الاجتماعي من خلال نشر ثقافة الاحتقار القائمة على الكره وعدم التقدير الاجتماعي لتعم بذلك ثقافة القيم الفورية وسريعة الصلاحية وتلغى بذلك ثقافة القيم الأصيلة وطويلة المدى.

إن عولمة القيم الخطيرة التي ضربت العالم اليوم هو ما جعل من مسألة القيم الفورية وسريعة الصلاحية محل اهتمام خاصة أمام ما بتنا نشهده اليوم من انتشار سريع لهذه القيم الشريفة والزائلة بالعالم العربي، وربما هذا ما جعلها في مطلع القضايا الحارقة التي شغلت الفكر وأربكته، خاصة أسلوب انتشارها السريع والواسع التي ما انفكت تشغل العديد وتلغى قيمهم بشكل أو بآخر من خلال احتوائها للعولمة. "فالأساليب المنهجية المعقدة المتبعة في حقل الاتصال - تلك التي أثبتت فعالية كبيرة فيما يتعلق بإخضاع جمهور المواطنين لتنظيم صارم وكفالة تأييدها - يجري تطبيقها عالميا بإيقاع متسارع"<sup>6</sup>.

### 3: فوضى القيم في الثقافة العربية الإسلامية:

إن ما يسترعي انتباهنا في تناولنا للفضاء العمومي العربي هو ما بات عليه الإنسان العربي اليوم من فوضى عارمة بين القيم والمبادئ، بين المعقول واللامعقول، باعتبار أن الحداثة قد داهمته دون أن يستعد لها فوقع بالتالي في اختلال قيمي وضبابية في الرؤية وهذا ما جعله لا يفرق بين المعقول واللامعقول، بين القيم الأصيلة والقيم الدخيلة وذلك نتيجة تصادم منظومتين قيميتين مختلفتين وهو ما زج بيه في الخلط واللبس وعدم التفرقة بين قيمه الأصيلة والقيم الدخيلة عنه.

فهذا التصادم القيمي بين منظومتين مختلفتين هو ما جعل من الإنسان العربي المعاصر في حيرة كبرى أمام قيمه الأصيلة والقيم الدخيلة عنه لأنه وبكل بساطة لم يعد يفقه ما يريد من حدة التأثير الحداثي على حياته، وضمن هذا المستوى كتب علي حرب في قراءته للضرورة القيميّة التي يعانيها الإنسان العربي: "إننا نعيش

خصوصياتنا حتى البداوة... ونغمس في عالميتنا حتى الثمالة، إننا نستخدم أحدث الأدوات ولكننا نرفض أحدث الأفكار والمناهج، نتشبث بالأصول حتى العظم على صعيد الخطاب والكلام، ولكننا نخرج عليها ونطعننا بالفعل والممارسة. إننا نستخدم أحدث الأسلحة لقتل بعضنا البعض ولكننا نرفض ثمرات العقل الفلسفي، ونعتبر أن العلمانية والديمقراطية والليبرالية أفكاراً مستوردة<sup>7</sup>.

إن هذه الفوضى القيمية التي ضربت الفضاء العمومي العربي من خلال سعيها المستمر نحو معارضة المنظومة القيمية السائدة والسعي نحو هدمها، هو ما يجعل من الإنسان العربي وخاصة الفيئة الناشئة تعاني من عدم التوازن النفسي بين أن تقبل القيم الدخيلة وتطمس قيمها الأصيلة وبين التمسك بقيمها الأصيلة وتترك القيم الدخيلة في حال سبيلها ونحن هنا لسنا بصدد مقارنة إشكالية الثابت والمتغير بقدر ما نسعى إلى جعل منظومتنا القيمية العربية قادرة على مجاراة تيار المنافسة والمواءمة للقيم الأخرى بل وبمستطاعها أن تحولها لصالحها حتى لا تتصادم معها وتترك بالتالي العقل العربي وتجعله في حالة ذهان ثقافي جد خطيرة.

فهذا التمزق النفسي الذي بات عليه الإنسان العربي بين الأصيل والدخيل من القيم هو ما جعله يعاني الاغتراب وذلك لأنه حاول التوفيق بين قيم عالمين بعيدين كل البعد عن بعضهما البعض، وضمن هذا المستوى كتبت ملكة أبيض: "تكمن الأزمة القيمية في شعور الفرد العربي بالتمزق لأنه أصبح يعيش في عالمين كلاهما غريب عنه، عالم الثقافة التقليدية التي لا تستطيع أن تضمن حاجاته وعالم الثقافة الصناعية الحديثة التي تشعره في كل لحظة بالنقص لأنه يستهلك منتجات من دون أن يسهم في بنائها"<sup>8</sup>.

ومعلوم أن هذا التمزق النفسي سيفضي بالإنسان العربي المعاصر إلى صراع مع قيمه ومبادئه من جهة ومع ذاته ومجتمعه من جهة أخرى، وهذا ما يجعله مضطرب الشخصية وغير مدرك لما يريد وما لا يريد حيث لا يعرف سواء كان تقليدي القيم ولا حداثي، وضمن هذا المستوى كتب محمود الذواودي: "إن تداخل القيم يؤدي في مجتمعات الوطن العربي والعالم الثالث إلى ما سماه علماء الاجتماع المعاصرون بالشخصية المضطربة، وبالتالي فإن الشخصية المضطربة تصبح بنيتها أكثر تفككاً واستعداداً لتشرب القيم الأجنبية الوافدة، وذلك بدوره يؤدي إلى حالة من التذبذب على مستوى الانتماء الثقافي. وهذا الوضع يقود صاحبه إلى ما سمته عالمة الأنثروبولوجيا الأمريكية مارغريت ميد: عهر الهوية"<sup>9</sup>.

يبدو إذن الاهتمام بحاجات الإنسان العربي القيمية، ومعرفة حدود الأخذ والعطاء في مسألة القيم، من أعسر المسائل طرحاً على الفكر خاصة أمام ما بتنا نشهده من انتشار واسع وسريع للقيم في العالم برمته، زد على ذلك فإن أزمة القيم بالفضاء العمومي العربي، قد أفضت بالإنسان العربي إلى فقدان المعنى رغم أنه قد أدرك أقصى أسباب الرفاهية نتيجة التقدم العلمي والتقني المهول الذي يسر له أسلوب عيشه، إلا أنه صار غريباً عن ذاته وعن حياته بفقدانه للقيم قيمتها. لذلك صار من الضروري أن تنزل الفلسفة إلى الميدان لتجاريها هذا النسق السريع للقيم نقدياً، فأية منزلة للقيم الفلسفية اليوم في الفضاء العمومي العربي؟ وبأي معنى يمكن للفلسفة أن تكون عمومية للتصدي للسيطرة الرقمية الجديدة والمفزعة؟

## 3: التفكير في إسترجاع القيم بصيغة نقدية للواقع العربي الراهن

لعلنا لا نبالغ في القول إذا ما قلنا بأن انحلال القيم بالعالم العربي اليوم، قد أصبحت من أكثر المواضيع تداولاً في الفكر العربي المعاصر، خاصة وأن الفضاء العمومي العربي اليوم أصبح يعاني فيه الإنسان العربي من الاغتراب رغم انتمائه ثقافياً لمجتمعه، اغتراب على مستوى القيم المعولمة الدخيلة عليه والسريعة الانتشار واغتراب حتى أمام ذاته التي لم يعد يفقه بعد ما تريد وما لا تريد أمام الهيمنة الجشعة للقيم التي ما انفكت تتغلغل بفضاءات اللقاء مع الآخر وتجعل من مجال التواصل والتفاعل ضيقاً ولا يحتضن همومه ومشاغله بالقدر الذي يزيد فيه من تعميق أزمته الداخلية وتوسيع معاناته التي ما انفكت تشمل جل ضروب حياته. لذلك اقتضت الضرورة أن يكون الفكر العربي مرآة عاكسة للواقع عبر مجمل الخطابات القارئة للراهن العربي.

من هذا المنطلق توجب على الفلسفة أن تساير الواقع العربي الراهن لكي تتصدى لأزمة القيم التي بات يعانيها الفضاء العمومي العربي والذي تجلى بوضوح في مختلف ضروب الحياة اليومية للإنسان العربي، فقد أصبح مستهلكاً سلبياً للقيم الدخيلة عنه بدل قيمه الأصلية والمحير في ذلك أنه يستهلك هذه القيم بجهل دون يفقه معانيها شأن من يرتدي لباس يكون فيه ضرباً من الإهانة والشتم ولكنه يرتديه وبكل حميمية دون أن يفقه معانيه. هذا فضلاً عن استسلامه للواقع الذي فرض عليه دون أن يكون فاعلاً فيه وربما يعود ذلك إلى غياب الوعي والتهميش الممنهج الذي يعانيه والذي أفضى به إلى أزمة شاملة للقيم. إنه العقل العربي القابع في سباته المتنع أمام عهر الهوية وهجنتها.

لقد صرنا اليوم نتكلم عن عقل عربي خاسف يقابله في الضفة المغايرة عقل غربي أداتي من أهم سيماته أنه يحاول دائماً تقنين الوقائع والقيم العربية إلى أجزاء غير مرتبطة كما ينظر إلى الإنسان العربي باعتباره جزءاً يشبه الأجزاء الطبيعية المادية. وهذا ما دفع بالعديد من المفكرين العرب إلى نقده فالعقل الأداتي كما قال عنه "المسيري" في كتابه "الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان" هو عقل ضيق الأهداف وما هو إلا "عقل شكلي يلزم بالإجراءات دون هدف أو غاية أي عقل يوظف الوسائل في خدمة الغايات دون تساؤل عن مضمون الغايات"<sup>10</sup>.

لذا وجب مهاجمة العقل الأداتي من جهة و العقل العربي المريض من جهة ثانية، ذاك العقل القابع في قلب حضارة تغربه عن ذاته وعن العالم من حوله، وهذا ما أدى بدوره إن شئنا القول إلى تعدد المسوخ والتشوّهات للعقل جراء نوم العقل العربي الغارق في عفويته داخل حضارة مجرمة مشوهة له ولقيمه من خلال دفعه المستمر نحو المجهول واللامعنى.

فالعقل العربي بات مهدداً بخطر الميثولوجيا والرؤخ في بوتقة اللاعقل، لأنه قد انزاح في السيل الجارف للوسائل التكنولوجية الحديثة التي تخدم الغايات المؤدية إلى الريح الذاتي والسيطرة وفرض نظام استبدادي على الأفراد بالفضاء العمومي العربي. بمعنى آخر فإن الإيديولوجيات والفلسفة التي نادى بها الأنوار قد تحولت مع التكنولوجيات الحديثة التي فرضها منطق التقدم الذي يخفي في ثناياه سياسة الجشع والقوة، أدوات

تخدم السيطرة التي تركز رضى الإنسان العربي إلى القيم الدخيلة بكل حميمية وذلك من جراء ما صار يعرف اليوم بـ "تكنولوجيات غسيل الأدمغة"<sup>11</sup>

فكيف السبيل إذن إلى جعل الاندماج الاجتماعي بالفضاء العمومي العربي ممكنا بعد أن شهد الفرد المعاصر اغترابا في عديد المجالات؟

على الفلسفة اليوم أن تنزل للميدان حتى تستوعب هموم ومشاكل الناس ويعم النفع الجميع، شأن ما بتنا نشهده اليوم من انتشار لبعض التجارب الفلسفية الفتية ببعض الدول العربية، كتجربة المقهى الفلسفي بتونس والمغرب الأقصى والجزائر، وتجربة تعليم الفلسفة للأطفال بالمغرب وكذلك يجب أن نتصدر العديد من الكتابات التي تستلهم قضايا الراهن العربي المجال شأن كتاب التداوي بالفلسفة لسعيد ناشيد، وتعليم الفلسفة للأطفال تجارب دولية لرشيد العلوي، إلخ. علنا نتمكن من بسط قبضتنا على قلوبنا ولا نتركها تتدثر وتتصدى أيضا للقيم الهجينة على واقعنا العربي الذي صار غريب عن ذاته.

حيث بمستطاع هذه التجارب والكتب أن تغير بعض ما أدى إليه التقدم العلمي والتقني وتأثيره السلبي على القيم، إذا أن بعض الأسئلة التي تربكنا قد نجد جوابها في الكتب شأن سؤال هل بإمكان الفلسفة أن تساعدنا على تغيير نظرتنا إلى الحياة الذي أجابنا عنه سعيد ناشيد " في قلب الأفكار والثورات التي تقودنا اليوم كانت الفلسفة هي الأكثر تعبيراً عن النفس الإنسانية. وانطلاقاً منها سأقدم ما أعتبره دروساً عظيمة تعيننا على فهم الحياة. وفي كل الأحوال بوسعنا أن نحمل جان جاك روسو على محمل الجد حين يقول عن (إيميل) ما يلي: "العيش هو المهنة التي سأجعله يتعلمها".<sup>12</sup>

ففي ظل التحولات العميقة والواسعة النطاق التي أحدثتها التطور العلمي والتقني السريع ومدى تأثيره العميق على القيم كان لزاماً على الفلسفة أن تشق طريقاً يتماشى وهذا التطور المهول للعلم لكي تتصدى لهذه الهيمنة التي جعلت من القيم تعاني الهجينة والعهر باعتبار أن هذا التطور العلمي السريع كان له أثراً واسعاً على القيم الأصيلة بالعالم العربي فكان له أثراً أخلاقياً علينا وعلى بيتنا كما يقول لوتشيانو فلويدي صاحب كتاب الثورة الرابعة.

#### خاتمة:

رغم أن القيم الأصيلة تشكل الهوية الذاتية للإنسان العربي، إلا أن انحلالها العفوي قد جعله في حيرة مع ذاته وفي مأزق أخلاقي مهيب، خاصة ما بات يعرف اليوم بظاهرة الإنفصام القيمي الذي بات عليه الإنسان العربي والذي جعله في حيرة كبرى أمام خياراته الذاتية التي ما تتفك وتتشابك بين ما يريد وما يجب عليه أن لا يريد لينعرج بذلك نحو أفق مفزع لم يعد يفقه فيه حتى ما يريد.

إن التمزق النفسي الذي بات عليه الإنسان العربي اليوم مرده إلى غياب الوعي الفكري الذي يجعله لا يفقه فعلاً ما يريد، وهذا ما توجب على الفلسفة أن تقوم به لتكون بذلك الحاضنة المتينة لهموم ومشاكل الفرد العربي القومية حتى لا يظل ممزقاً بين عالمين كلاهما غريب عنه، سواء عالم الثقافة التقليدية أو عالم الثقافة الصناعية الحديثة الذي فرضه عليه التطور العلمي والتقني السريع.

فما استرعى انتباهنا ضمن تناولنا لهذا الطرح هو الواقع الذي بات عليه الإنسان العربي من تمزق قيمي واسع النطاق، لذلك راهنا على ضرورة تربيع الفلسفة على العرش العربي حتى تتمكن من مسaire ما يحدث بهذا الفضاء العمومي العربي اليوم خاصة وأن مجتمعنا العربي يزخر بالعديد من المفكرين والمهتمين بالشأن العام حتى يعود بريق الأمل من جديد إلى حياتنا التي هيمنت عليها قيم هجينة لا تمس لأصولنا بشيء.

#### قائمة المصادر والمراجع:

- <sup>1</sup> - علوش نور الدين، تحولات الفضاء العمومي في الفلسفة السياسية المعاصرة: من هابرماس إلى نانسي فريزر، مجلة إضافات، عدد 36-37، 2014، <https://platform.almanhal.com/Files/2/78806>.
- <sup>2</sup> - علي حرب، غزو ثقافي أم فتوحات فكرية، الفكر العربي، عدد 74، خريف 1993، ص 6.
- <sup>3</sup> - مصطفى شريف، جاك بيرك، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، 2019، ص 92.
- <sup>4</sup> - مصطفى شريف، جاك بيرك، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، 2019، ص 92.
- <sup>5</sup> - هيربرت أ. شيلر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978. ص 21.
- <sup>6</sup> - هيربرت أ. شيلر، المتلاعبون بالعقول، ترجمة عبد السلام رضوان، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1978. ص 153.
- <sup>7</sup> - علي حرب، غزو ثقافي أم فتوحات فكرية، الفكر العربي، عدد 74، خريف 1993 ص 74.
- <sup>8</sup> - ملكة أبيض، الثقافة وقيم الشباب، وزارة الثقافة، دمشق، 1984، ص 220.
- <sup>9</sup> - الداودي محمود، بعض الجوانب الأخرى لمفهوم التخلف الآخر في الوطن العربي، الوحدة، السنة 5، العدد 50، نوفمبر 1988، ص 81.
- <sup>10</sup> - عبد الوهاب المسيري، الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، دمشق، دار الفكر، 2002، ص 87.
- محسن الخوني، "الأمر بعد كانط"، المجلة التونسية للدراسات الفلسفية، 2004-2005 عدد 38-39، ص 52.
- <sup>11</sup>
- <sup>12</sup> - سعيد ناشيد، التداوي بالفلسفة، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 2018، ص 26.